القصص

على هامش السيرة

حفر زمزم

للدكتور طه حسين

— ١ —

كان عبد المطلب سمح الطبع رضي النفس سخي اليد حلو العشرة عذب الحديث . وكان عبد المطلب أيضاً قوي الايمان غلك قلبه وتسيطر على نفسه نزعة دينية حادة عنيفة ، ولكنها فاضة يحسها ويخضع لها ، ولكنه لا يتبينها ولا يستطيع لها فهما ولا تفسيراً . أبوه من مكة حيث التجارة والثروة ، وحيث المكر والدهاء ، وحيث الوثنية السهلة التي لا تحرج فيها ولا مشقة . وأمه من يثرب حيث الزراعة والصناعة اليسيرة ، وحيث اليهودية تجاور الوثنية فتضعفها وتنقص من ظلها وتكاد تمحوها ، وحيث الأخلاق اللينة والشمائل ، الحلوة وحيث الظرف ونعومة الحياة .

ولد في يثرب ومات عنه أبوه فلم ينقله الى مكة فنشأ بين أخواله وتأثر بحياتهم وتخلق بأخلاقهم وسار سيرتهم حتى بلغ الشباب أو كاد ، ثم أقبل عمه فانتزعه من اقليمه السهل الهين الى اقليم آخر صعب عسير ، تجدب فيه الأرض ولا تبتسم له السماء الا قليلا . يرحل أهله الى الآفاق ويعد على أهله الناس من جميع الآفاق . فهم يأخذون من الناس ويعطونهم ويبادلونهم الاخلاق والشمائل كما يبادلونهم المنافع وعروض التجارة ، ولعل أخلاق يثرب وخصال مكة قد اختصمت في نفس هذا الغلام ، ولعل اختصامها قد طال ، ولعل اختصامها قد تصر ولكنها على كل حال قد انتهت الى شيء من الاعتدال آخر الأمر . فلم يكتمل الفتى شبابه حتى كان فتى من قريش ، ولكنه يمتاز من بقية فتيان قريش . فيه ذكاؤهم وفطنتهم وفيه إباؤهم وعزتهم ولكن فيه دعة لم تكن ألوفة عندهم ، وفيه شدة في الدين قلما كانوا يرضونها أو يعسون لها . على أن خصلة أخرى ميزته منهم أشد التمييز ، فلم يكن يصدر في حياته ، كما كانوا يصدرون عن الروية والتفكير وطول التدبر ، وانما كانت تدفعه الى العمل والاضطراب في الحياة قوة خفية يحسها ويأبى عليها ويتلو في الاباء ، ولكنه يضطر الى أن يذعن لها ويصدع بأمرها ، وكانت هذه القوة تصدر اليه أمرها في أشكال مختلفة ، تدفعه الى العمل حينا ، وكأنها ارادته الخاصة قد ملكت عليه حسه وشعوره ؛ فهو لا يستطيع عنها انصرافاً ولا يملك لها خلافاً . وتتمثل له حيناً آخر شخصاً واضح المخايل بين الصورة ، يلم به اذا اشتمله النوم فيأمره أن يأتي كذا وكذا من الأمر . وتنتهي اليه مرة ثالثة صوتاً رقيقاً ولكنه صالح يملأ أذنيه يقظان ، ويملأ أذنيه نائماً يحثه على أن يأتي كذا وكذا من الأمر ، وكان في هذا الصوت غموض وكان في هذا الصوت ابهام وكان في هذا الصوت جلال مصدره هذا الغموض والابهام ، وكان الفتى ينكره ويرتاع له ، وكان الصوت يغمره ويلح عليه . وكان الفتى يخاف هذا الصوت ويهواه ، وكان الصوت يتجنب الفتى حتى يؤيسه من نفسه ، ، يلم به فيكثر الالمام . ولم يكن هذا الصوت يقع في أذن الفتى بألفاظ كالتي تقع في آذان الناس انما كان يصطنع ألفاظاً خاصة غريبة الجرس غريبة المعنى .

كانت اليه رفادة الحاج وسقايته بعد عمه المطلب ، فكان يطعم الناس اذا حجوا البيت ويسقيهم ، يجمع لهم الماء في أحواض من الأدم ، وكان يجد في جمع هذا الماء لسقاية الحجيج جهداً وعسراً فبينا هو نائم ذات يوم أو ذات ليل ، أتاه آت رأى شخصه ولم يتبين له سمة ولا شكلا وقال له في صوت رقيق غريب فيه أنس وفيه وحشة : احفر (طيبة) قال : وماطيبة؟ فانصرف

الشخص وانقطع الصوت ، وأفاق الفتى وفى نفسه ذعر وعجب وأمل . وحاول أن يعود الى النوم لعله يرى هذا الشخص ، أو يسمع هذا الصوت أو يتبين هذا الحديث ولكن النوم كان قد خاصم عينيه وانصرف عنه مع هذا الشخص الغريب ، فكر وأطال التفكير ، وقدر وأطال التقدير ، وتقلب فى مضجعه فأكثر التقلب ، حتى ضاق بالنوم واليقظة وسئم مضجعه . فجلس يرقى ببصره الحائر الى السماء لعل شمس النهار او نجوم الليل تفسر له هذه الرؤيا ، ويخفض بصره الى الأرض لعله يجد فى إطرائه تفسير هذه الرؤيا ، ويمد بصره نحو الكعبة لعل صنما من هذه الأصنام المنصوبة يوحى اليه بتعبير هذه الرؤيا . ولكن السماء صامتة والأرض ساكنة وعلى أصنام الكعبة شىء كأنه الوجوم ، فيرتد الى الفتى بصره متعبا مكدودا ، وتهوى نفسه الى قرارة ضميره لعلها تجد لهذا الرمز تأويلا ، فلا تجد شيئا ، فيشتد بها الذعر ويزداد فيها العجب ، ويبقى لها الأمل ، ويتهض الفتى فيضطرب مع الناس فيما يضطربون فيه من أمور الحياة

ثم يقبل الليل ويأوى الفتى الى مضجعه ، وقد أنسى كل شىء الا أنه قد مشى كثيرا وأجهد نفسه كثيرا ، وانه أشد ما يكون حاجة الى أن يبسط عليه النوم جناحيه . ها هو ذا مستغرق فى نوم هادىء مطمئن ، قد هدأ من حوله كل شىء واطمأن فى نفسه وجسمه كل شىء . ولكن ما هذا الشخص الغريب يقبل ساعيا اليه فى أناة ، حتى اذا دنا منه قال له فى صوت رفيق غريب فيه أنس وفيه وحشة « احفر بئرة » وجسم الفتى هادىء مطمئن ولكن نفسه ثائرة مضطربة ، ولسانه يتحرك فى ثقل وصوته يبعث من بين شفتيه خفيفا رقيقا هذه الكلمة (وما برة ؟) فينصرف الشخص ويتقطع الصوت ، ويغيق النائم وجلا مذعورا معجبا آملا ، ويفكر ويقدر ويتقلب ، ثم ينهض فيسأل السماء ولكنها صامتة ! ويسأل الأرض ولكنها ساكنة ! ويسأل أصنام الكعبة ولكنها مغرقة فى البله والوجوم ! ويضيق الفتى بنفسه وبالسماء والأرض والأصنام فيهيم على وجهه يلتمس فى الحركة والاضطراب نسيان هذا الطائف الذى يفزعه ويغريه . ثم يعمل الناس فى أمور الحياة . ويقتضى النهار بخيره وشره وحلوه ومره ، ويقبل الليل شيئا فشيئا فيبسط أرديته السود على ما يحيط بمكة من جبال وآكام وما يزال يمد فى هذه الأردية حتى يغمر كل شىء ويستر كل شىء لولا هذه المصابيح الضئيلة التى تشب فى الأرض ، وهذه النجوم القليلة التى تضطرب فى السماء . وقد سمر الفتى مع السامرين فسمع أحاديث التجار عن غرائب الأقطار ، هذا يحدث عن تصور بصرى وعظمتها وهذا يحدث عن الخورنق والسدير وهذا يذكر غمدان ، وهذا يصف أخلاق اليمانين ومكرهم بالتجار وهذا يتحدث عن سذاجة أهل الشام وانخداعهم لغربان العرب ، وهذا يذكر ما أفاد من ربح حين باع الأدم فى الحبشة ، وهذا يذكر للقوم ما حمل لهم من خمر بيسان ، وهم فى أثناء هذا كله يتندرون على العجم والأعراب ، ويتفكهون بأحاديث أولئك وهؤلاء ، ويسخرون من أولئك وهؤلاء . حتى اذا تقدم الليل واطمأن كل شىء تفرقوا ، ونهض الفتى ثقيلا فمشى الى بيته متباطئا يود لو فر من النوم ، ويود مع ذلك لو نام فألم به هذا الطيف . انظر اليه ! انه ليتردد أيقذف بنفسه فى امواج النوم هذه التى تتمثل أمام عينيه . لم يبق على الشاطىء يقظان يلاعب النوم ولا ينام ليتردد ما استطاع ، ليمتنع على النوم ما وسعه الامتناع ، فان هذه الأمواج المصطخبة أمامه ، تستطيع أن تطغى على الشاطىء فتغمره ، وتغمر معه كل شىء . وكيف يستطيع هذا الفتى أن يمتنع عليها وما استطاعت أن تمتنع عليها جبال مكة هذه التى تحيط بها من كل ناحية ! انظر أترى حركة ؟ اسمع ! اتحس نباة ؟ كل شىء هادىء ! كل شىء مطمئن ! فما نبوك وما امتناعك ؟ هلم الى النوم لا تخف شيئا ! ان هذه الأمواج تريح ولا تغرق ، أقبل الى هاتين الذراعين اللتين تمتدان اليك فتنضم بينهما كل شىء ، ومن يدرى لعلك تجد بينهما شفاء لنفسك الحائرة ! وأطبق الفتى جفنيه واندفع أمامه فاشتملت عليه أمواج النوم كما اشتملت على غيره من الناس والأشياء . ولكن ماذا ؟ هذا شخص يتقدم ساعيا هادئا كأنه عش على الهواء حتى اذا دنا من الفتى قال فى صوت رفيق غريب ، فيه أنس وفيه وحشة « احفر المضنونة » جسم الفتى هادىء ، ولكن صورة من الحيرة قد ارتسمت على جبهته ، وهذا صوت خفيف رقيق ينبعث بين شفتيه وهو يقول : ما المضنونة ؟ فينصرف الشخص وينقطع الصوت ، ويفيق الفتى مذعورا مأخوذا ، قد أظلم فى نفسه كل شىء ، وأحاط اليأس

بعقله وقلبه وضميره . لا يرتفع بصره الى السماء ولا ينخفض الى الأرض، ولا يمتد الى أصنام الكعبة، ولكنه يدور حائراً! وينهض الفتى وهو يقول: ما أرى الا انى سأجن ! لئن أصبحت لأتين الكاهن، فلعلى أجد عنده من هذا العارض شفاءً .

أقبل أيها الصبح ، اسرع فى الخطو ، ارفق بهذه النفس الحائرة، هلم الى سوطك المشرق المضيء، فبدد به هذه الأشخاص الماثلة ، فرق بهذه الظلال المضطربة من حولى . ويقضى الفتى ليلا طويلا ثقيلا، حتى اذا كست الشمس بضوئها التقى ظواهر مكة و بطاحها أسرع الفتى الى المسجد يريد أن يقص أمره على الكاهن . ولكنه لا يكاد يبلغ مجالس قريش فى فناء المسجد، حتى تذهب عنه حيرته و يفارقه وجومه ، و يمتلئ قلبه اطمئناناً وثباتاً ؛ ماذا ؟ أيزعم للكاهن انى مجنون وتشيع فى هذه المقالة و يضحك منى حرب بن أمية ولداته و يتندر على فتيان مخزوم؟ . كلا ، ما أكثر هذه الخيالات التى تسكن الى نفسها فى قبور الموتى ! . وتختبىء فى الكهوف والأغوار ما أضاءت الشمس، واستيقظت الطبيعة. فاذا أظلم الليل ونام الكون انتشرت هذه الخيالات فى الجو فمنها ما يصعد فى السماء يرعى النجوم، ومنها ما يهبط الى الأرض يروّع الناس . وما أرى أن هذا الطائف الذى يؤرقنى منذ ثلاث إلا خيالا من هذه الخيالات لعله ظل ميت من موتى قريش قد أنسيه قومه فهم لا يزورونه ، ولا يقربون اليه لعله شيطان من هذه الشياطين التى تلح على الانس فتتقاضاهم الطاعة وتخضعهم لسلطانها كرهاً . لعله نذير من احد الآلهة يطالب بالضحية والقربان ، لقد مضت أيام ولم تقدم الىّ الآلهة شاة ولم ينحر لهم جزور ، ولم تصطبغ أرض المسجد بهذا الدم الحار الثانى الذى تحب الآلهة لونه ورائحته . إيه ياعبد المطلب، تقرب الى الآلهة بضحية ترضيهم لعلهم يرضون، ولعلهم يكفون عنك هذا الشر ! وأقبل الفتى على مجلس من مجالس قريش ، فتحدث وسمع ولكنه كان شارد النفس فلم يطل الحديث ولا الاستماع ونهض مولياً ، فلما انصرف عن القوم قال حرب بن أمية لمن حوله أرأيتم إلى سرى بنى هاشم، انى لأراه محزوناً، وانى لأعرف فى وجهه الهم، لم يحدثنا اليوم عن مآثر أبيه ومفاخر عمه .

ومضى الفتى الى أهله ، فلما دخل على امرأته أنكرت عودته اليها من الضحى ، واستقبلته دهشة وهى تقول ! إيه ياشيبة ما خطبك ؟ انى لأنكرك منذ أيام . أراك مؤرق الليل ، قلق النهار، قليل الحديث ، طويل التفكير . ولقد هممت أن أسألك مرات، ولكنى خشيت ردك على وانتهارك لى . فانى لأعلم فيكم معشر قريش رقة للنساء ، ودعابة معهن ولكنى لا أجد عندك ما أجد عند قومك، فأنت صامت اذا خلوت الى أهلك، وأنت مقطب الجبين إن أطافك معهم سقف . تحدث ما يحزنك؟ اخرج عن هذا الصمت الذى لزمته ، كن رجلا من قريش ، أشرك أهلك فيما يعنيك، لقد أذكر يوم أتيتانى أنى أنك خطبتنى اليه ، لقد فرحت بهذا النبأ، لقد كنت أتحدث الى اترابى فى البادية بأنى سأصبح امرأة من قريش، أجد من نعمة الحياة وليها ومن ظرف الزوج ورقته مالا يجدن تحت خيام بنى عامر بن صعصعة ، ولكنى وجدت نعمة ولينا ، ووجدت حباً وعطفا، ووجدت عناية لا تعدلها عناية، ولم أجد احب ما كنت أطمح اليه ، لم أجد منك ابتسام الثغر ، ولا انبساط الجبين ، ولا انطلاق اللسان. قالت ذلك وانتظرت هنيهة . فأجابها زوجها بصوت هادىء حزين . عزيز على يا سمراء ما تجدين من حزن ، وما تحسين من خيبة الأمل . انى لأحبك كما يحب الظمأن ما ينقع غلته من الماء العذب . انى لآنس اليك انسا يزيل عن نفسى كل هم ويحبب الى الحياة و يرغبنى فيها . انى لأشتاق الى التحدث اليك والاستماع لك والانس بك ، ولو خيرت لما عدلت بمجلسك مجلس قريش ولا بيتك فناء المسجد ودار الندوة . ولكن ، قوة خفية عاتية طاغية تملك علىّ نفسى وتأخذ علىّ كل سبيل وتدفعنى الى حيث لا أدرى ولا أريد . ايه يا سمراء ، انى لمؤرق الليل ، قلق النهار مفرق النفس منذ ليالى، وانى لأخشى على نفسى شراً . هذا طائف يلم بى اذا أغرقت فى النوم فيأمرنى بصوت رقيق غريب ، فيه انس وفيه وحشة أن أحفر شيئاً يسميه طيبة و يسميه برة و يسميه المضنونة ، فاذا سألته عما يريد انصرف شخصه وانقطع صوته ، وافقت حائراً مذعوراً . لقد هممت ياسمراء أن أقص رؤياى هذه على الكاهن ، وأن أصف له ما أرى وما أجد، ولكنى أشفقت أن يتحدث الناس عنى انى مجنون ، أو أن يتندر بى فتيان قريش فيقولوا : ان له رئيا من الجن . أشيرى ماذا ترين؟ قالت سمراء : هون عليك ولا تغل فى الخوف ولا تسرف فى الاشفاق،

ما أكثر ما يلم أمثال هذا الطيف بالناس عندنا في البادية ، فلا يحفلون ولا يأبهون ، ومع ذلك فما يمنعك أن تتقرب انت الى الآلهة في غير توسط للكاهن ، ولا توسل به ، ثم فضح لهم وقرب اليهم فسيرضون ، وسيرضى الفقراء والجائعون ، وسيغيظ ذلك قوماً من قريش .

وما هي إلا ساعات حتى كان فناء المسجد يموج بالناس ، فيهم الفقراء ، قد أقبلوا من المطاح والظواهر . وفيهم الأغنياء قد أقبلوا يقدمون الضحايا بين أيديهم . هؤلاء يتنافسون أيهم يغلي الضحايا ويكثر منها . وأولئك ينتظرون ويمنون أنفسهم بفريض اللحم وجيده . لقد سمعوا أن عبد المطلب يريد أن يضحي ، وان بني هاشم قد حفلت لذلك ، فكرهت أمية أن لاتفعل فعلهم وكرهت مخزوم أن تسبقها عبد مناف ، فأقبل أشراف قريش يتسابقون في التضحية ، ويتنافسون في القربان ! تنافسوا تنافسوا أيها الأشراف ! استبقوا أيها الاغنياء ! فان في ذلك شبع الفقراء وسعادة الأشقياء .

وقضت مكة يوما داميا سمينا ، كثر فيه الطعام وكثر فيه الشراب ورضيت فيه الأصنام ، وسعد الفتى بما رأى ، ونسي الفتى ما كان يهمه وينغصه ، وقدر الفتى أن قد صرف عنه الشر ورد عنه المكروه ، ورضيت سمراء . فتحدثت كثيراً ، وسمعت كثيرا وأضحكت زوجها وابنها الحارث بملح الأعراب ، ونوادر البادية . وقالت لزوجها وهي تمسح رأسه : أحبب إليّ بهذا الطائف الذي أرقك وأضناك ، فقد حقق أملي وأراني ما كنت أطمح اليه . ورسم في قلبي صورتك جميلة خلابة ، فان أراك منذ اليوم — مهما تكن الخطوب — إلا باسم الثغر ، منبسط الجبين ، منطلق اللسان . وهل السعادة إلا لحظات قصار ، تصيبنا ولم ننتظرها ولم نقدر لها حسابا! فما أسعد القلب الذي يحتفظ بهذه اللحظات حين تمر ، ويتخذها ذخراً للأيام ، وما يعرض فيها من الخطوب قال عبد المطلب : إذن فأنت راضية ياسمراء إن رضاك ليقع من نفسي المحزونة موقع الماء من الأرض المجدبة . اسمعي بما أنت فيه ، وانتظري أن يقدر الله لك خيراً منه . فلو قد صرفت عني هذه القوة الماثلة الطاغية لأريتك ياسمراء كيف تطيب الحياة ، وكيف ترق حواشي العيش .

وأوى الفتى إلى مضجعه راضياً مسروراً ، واستقبل النوم مبتهجا له راغباً فيه ، ولكن هذا الشخص يقدم عليه ساعيا في هدوء ، كأنما يمشي في الهواء ، حتى اذا دنا منه انحنى عليه ، ووضع على جبهته يداً باردة خفيفة ، وقال في صوت رفيق غريب ، فيه أنس وفيه وحشة . احفر زمزم . واضطرب جسم الفتى كله واضطربت نفس الفتى كلها وانفتحت شفتاه عن هذه الكلمة : وما زمزم ؟ قال الطيف بصوت رفيق مؤنس ، قد فارقته الغرابة والوحشة وممازجته سخرية ورحمة . « لا تسرح ولا تذم ، تسقي الحجيج الأعظم ، وهي بين الفرث والدم ، عند نقرة الغراب الأعصم » قال الفتى : « الآن قد وعيت » فتولى عنه الطيف باسما وهو يقول : « الله أنتم أيها الناس لايكيدكم الوحي ، ولا تفقهون إلا سجع الكهان . رويداً عما قريب سيضيء الصبح » ونهض الفتى مبتهجاً مسرورا . فلما أصبح دخل على سمراء مشرق الوجه مضيء الأسارير . قالت وهي تنعى اليه : أيهما أحب إلى نفسي اشراق وجهك أم اشراق الشمس؟ ما أرى إلا انك قضيت ليلا هادئا . قال : انعمي صباحا ياسمراء لقد طالت الحياة منذ اليوم ، ان هذا الطائف الذي يلم بي منذ ليالي ، طائف خير يأتي بالنعمة والغيث ، انه يأمرني أن أحتفر في فناء المسجد بئرا ، فلا أفعل منذ اليوم ، ولئن ظفرت بها ليشربن الحجيج في غير جهد ولا عسر . هلم ياحارث خذ معولا ومكتلا ومسحاة واتبع أباك . ويتبعه الماء إلى عرفات . .

(يتلى) طه حسين

فاوست

للشاعر الفيلسوف جوت الالماني

نقلها عن الألمانية

الدكتور محمد عوض الاستاذ بمدرسة التجارة العليا

وهي قصة رائقة الاسلوب سامية الخيال طريفة الموضوع فلسفية الغرض دقيقة الترجمة . تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر ومن المكاتب الأخرى ثمنها ١٥ قرشا